الشعر والشعراء

أخشى أن يكون أهمّ أركان الشعر إحساسُ الشاعر بمعانيه إحساساً كاملاً نافذاً متغلغلاً، لا يدعُ المنطق العقلي المجرّدِ عملاً في تكوين شعوره . وليس معنى ذلك أن يتعرّى الشعر من المنطق العقلي المجرد ، بل معناه أن ينقلب المنطق العقلي — بكماله وتمامه وقوته واستوائه واستقامته — حاسةً دقيقة مدبّرة تعمل في حياطة الإحساس والقيام عليه وتصريفه في وجوهه على هُدًى لا يضل معه ، فلا يشرُد عن الغرض الذي يرمي إليه في التعبير عن الصور التي تنشأ لهذا الإحساس . وإذن فأكبرُ عمل المنطق العقلي في الشاعر — أن يُمِدَّ الإحساسَ ، بما ليسَ لَهُ من الاستواء والاستقامةِ والسداد ، وكذلك تتداعى إليه الألفاظُ التي يريدُ التعبير بها مقترناً بعضها إلى بعض ، بحيث لا تخرج هذه الألفاظ في الكلام حائرة قلقة ، تحول في عبارتها من انقطاع الرباط الذي يربطها بالمعاني التي أحسها الشاعر ، فهاجته فغلبته فأراد التعبير عنها تعبيراً صافياً مهتزاً متغلغلاً قوياً ، فيه صفاء الإحساس ، واهتزازه وتغلغله وقوته

وأداة المنطق العقلي هي اللغة ، والعقل بغير اللغة لا يستطيع أن يستوي ويتسلسل ويتصل ، ولا أن تتدفق معانيه في مجراها الطبيعي .

فالمنطق العقلي كما ترى هو خزانة اللغة التي تمول الإحساس ، فهو يتقاضاها ما تستطيع أن تمده به من المادة التي تمكنه من الظهور والانتقال. فربما أخذ من اللغة ما هو «موصل رديء» للاحساس ، وربما أخذ منها ما هو « موصّل جيد » يستطيع أن يسري فيه إلى قارئه أو سامعه . فإذا عرفت هذا أيقنت أن الشعر يتصل أول ما يتصل بإحساس قارئه وسامعه ، فيهزه بقدر ما تحمل ألفاظه من إحساس قائله . فإذا أخفق أن يكون أثره كذلك ، فمرجع هذا إلى أحد أمرين :

إما أن الشاعر لم يُوَفَّق إحساسُه في الاستمداد من لغته — ما يطابق الإحساس ويكون «موصّلاً جيداً» له ؛ لأن منطقه العقلي لم ينبذ إليه من مادته ما هو حق المعاني التي يتطلبها إحساسه ، هذه واحدة . أو لأن مادة هذا المنطق العقلي أفقر من إحساس الشاعر ، فهي لا تملك عندها ما يكفي للتعبير عن إحساسه ، فهذه أخرى . ولهذه العلة الأخيرة تجد كثيراً من عامة الناس ليسوا شعراء ، ومع ذلك فربما كان أحدهم أدق إحساساً وأعمق وأعنف ، ويكون إحساسه أحفلَ بالمعاني وأغنى ، وإنما يقطعهُ عن الشعر هذه العلة ، وهي فقر المنطق العقلي من اللغة التي هي مال له . أو انقطاع المنطق العقليّ دون الوصول إلى المنطقة التي ينقلب فيها هذا المنطق — بكماله وتمامه وقوته واستوائه واستقامته — حاسةً دقيقة مدبّرة تعمل في حياطة الإحساس والقيام عليه وتسديده للغرض الذي يرمي إليه في التعبير عن معاني الإحساس ، كما قدمنا آنفاً

وأما الأمر الثاني — الذي يُخْفِقُ بسببه الشعر في التأثير — فرَدُّهُ إلى القارىء أو السامع . فإذا كان إحساسُ السامع أو القارىء ضعيفاً بليداً غثّاً ، فمهما يَأْتِه من شعر حافل قويّ عنيف دقيق العبارة عن إحساس شاعره — فهو لديه شيء فاترٌ ضعيفٌ لا يهزُّه ولا يبلغُ منه ولا ينفذُ فيه ؛ وهذا الضرب من العامة الذين لا يتأثرون بالشعر لا يُعتد بهم ولا ينظر إليهم ، ولكن هناك ضربٌ آخر يكون بليغ الإحساس جيد التلقي ، صالحاً للتأثر بما ينتقل إليه من هزة الإحساس فيهتزُّ لها ويطرب ، وقد يكون مع ذلك خِلْوًا من اللغة التي يعبّر بها الشعر ، إذ ليس له منطقٌ عقليٌّ سامٍ متخير للكلام يختزن اللغة لنفسه إذا فكّر ، ولفهمه إذا حُدث أو أُنشد ؛ فهو ربما سمع الشعر الجيد فلم يبلغ منه المبلغ الذي أريد له هذا الشعر ، وكثر هؤلاء في عصرنا هذا حتى سقط الشعر ولم يحفلْ به إلا قليلٌ ؛ وهم لم يكونوا كذلك إلا لفساد التعليم وقلة احتفاله باللغة وبيانها وأسلوب مجازها ، ولأن الجهلاء والسخفاء هم سوادُ الناس ؛ وفساد الطبائع فيهم راجعٌ إلى هذين : فمخالطة الجهالة تورث الجهالة والخبال ، وترك التعلّم وسوء التعليم ذريعةٌ مفضيةٌ إلى الجهل والبلادة ، فكيف — مع هذين — يخلص أحدهم من فقر العقل وبلادة التأثر بالشعر البليغ الحافل بالإحساس المشبوب العنيف ؟

فأنت ترى : أن اللغة المتخيرة المرصدة للتعبير عن الإحساس تعبيراً مسدداً بالمنطق المثلى الذى لا يزلُّ على مدارج المجاز فتنقطع صلاته بحقائق المعانى التى وضعت لها هذه الألفاظ اللغوية ... ، ثم المنطقُ المثلى الذى يختزن هذه اللغة ، ويستطيع أن يتحول حاسة دقيقة مدبرة تقوم على الإحساس وتحوطه من الضلال ... ، ثم المعانى التى يتمثلها إحساس الشاعر حين تهيجه ما يؤثر فيه تأثيراً قوياً عنيفاً – هذه الثلاثة هى ، مادة الشعر الجيد ، فإذا سقط أحدها أو انحط أو ضعف ؛ سقط الشعرُ بسقوطه أو انحط أو ضعف

وأنا أقول : إن أكثر شعر العصر العربى الحاضر قد انحط وضعف وسقط ، لأن أكثر الشعراء قد بلغ منهم العيب مبلغاً أفسد كل ما يمتدُّ به من آثار « الشاعرية » التى بقيت فيهم ؛ ولم يخلص لأحد منهم جميع هذه الثلاثة التى ذكرنا . ولكن بقى لشاعرين أو ثلاثة ما يمكن أن يُلحقهم بأهل الرتبة الأولى من الشعراء العبقريين ؛ وهذه الرتبةُ الأولى إنما نتخيلُها ولا نكاد نعرف أحداً استوى عليها، فلك فيها بيان العربية وشعرها يصرفهما كيف شاء ، فيكون فى تاريخ اللسان العربى عبقرية جديدة كامرئ القيس ، ومسلم بن الوليد ، والمتنبى ، وأبى نواس ، والبحترى ، وأبى تمام ، وغيرهم ممن يعد لساناً وحده ...

شاعر ! !

وأحد هؤلاء الشعراء الثلاثة الذين سيدفعون أنفسهم فى مجاز العربية حتى يبلغوا المرتبة الأولى — فيما نتوهم — هو « محمود حسن إسماعيل » : فهو إنسان مرهف الحس دقيقه ، متوهجُ النفس ، سريع التلقى للمعانى التى يصورها له إحساسه ، وإن إحساسه لينشئُ له من هذه الصور والمعانى أكثر مما يستطيع أن يطيق صبره ؛ وهو – إذ فقد الصبر على مطاولة هذه المعانى من إحساسه – تراه يثبُ وثباً من أول المعنى إلى آخره لا يترفّق، كأن فى إحساسه روح « قنبلة » . فلذلك تجد المنطق المثلى فى شعره متفجراً أبداً لا يبالى « أوقع على اللفظ من اللغة ، أم وقع اللفظ عليه » ، ولكنه على كل حال منطق يقظُ حساس بعيد الوثبة ، يحاول دائماً أن يضبط هذا الإحساس الذى لا يهدأ ولا يستقر . وسينتهى – بعد قليل من المصابرة والمرابطة لإحساس شاعره — إلى القدرة على متابعة إحساسه وكبحه وتوجيهه على هـدًى واحد مؤتلف غير مختلف ، وذلك حين يجتاز الشاعر السن التى هى علة التوقد الدائم والاهتزاز المتتابع تتابع البرق إذا خفق وومض وضرب بعضه بعضاً بسياط من الضوء فى عوارض السحاب ...

وأما لغته ، فقد ملك منها ما يكفيه بقدر حاجة بعض إحساسه ، فإذا امتدت يده إلى خزائن العربية التى لا تنفد ، وتداخل فى أسرار حروفها بالمدارسة الطويلة ، تآمرت – ثلاثتُها — على تسنية الأبواب له واحداً بعد واحد ، حتى يستطيع أن يستوى على سَرارة المرتبة الأولى للشعر غير مدافع .

هذا ... وإن فى كثير من شعره الذى نشره إلى اليوم ، ما يجعلنى على ثقة – إن شاء الله – من أنه مدرك ذلك لا محالة ، فهو قد استولى على كل ما هو به شاعر ، ولا أظن ظن السوء بقدر الله أن يكون هو قاطعه دون المنهج الذى تعبّد بين يديه ، ولم يبق له إلا قليل حتى يبلغ الذروة العليا

قصيدة الزلزال

وقد قرأت قصيدته[1] الأخيرة فى « فاجعة تركيا » – كما سماها – ثم سمتها ، فوجدت لزاماً علىّ فى هذا الباب أن أثبت بعض رأيى فى الشعر والشاعر ، ثم فى « محمود حسن اسماعيل » خاصة ، ثم فى هذه القصيدة . وقبيح أن يجهل مريدو الشعر الجيد هذه القصيدة الفذة ، التى تكشف عن السر المستكن وراء هذا الشاعر . وإذ قد عرضنا مرة لبعض الشعر الأسود المظلم ، فلا بد إذن من أن نمحو آيته ببعض آيات الشعر المشرق المضيء

وقد كان « زلزال الأناضول » عذاباً من العذاب الأكبر بأهواله ، حتى قالوا إنه أشد ما عرف من الزلازل وأخطرها وأفظعها موقعاً وأثراً ، وقد كان ما تنشره الصحف اليومية من أخباره هولاً هائلاً مفزعاً يكاد يجعل الولدان شيباً . فلا شك إذن أن يكون هذا الرعب الراجف فى إحساس شاعر فزِعٍ « كمحمود » رجفةً يُرعد بها رِعدة طائرة مدوية مصلصلة مجلجلة

وأنت إذا بدأت القصيدة :

هات الشدائد للجريحة هاتها	فالصبر فى الأهوال دين أساتها
واحشُد صروفك يازمان فربما	لعب المظالم شُب من نكباتها
ولعلها خمرٌ تدور فيسـتقى	خمر الكفاح الشرق من كاساتها

(١) وهى طويلة تزيد على ثمانين بيتا ، فلذلك لم نستطع أن نستوفى الكلام منها وإنما دللنا على منهاجها وروعتها

رأيت الأسر والنداء ، نداء الفزع الطاغي بطغيان أمواجه على إحساس الشاعر ، فلم يملك إلا إسلام نفسه إلى اليأس ، فيستزيد من البلاء ويطلبه فيقول : « هات الشدائد » ثم يعود فيقول : « هاتها » ليثبت إيمانه بالصبر على هذا البلاء ، فهو إيحاء؛ إذ قد يئس أن يصرف عن إحساسه ما طغى به عليه هول ما سمع من صفة الزلزال . ويدلك على أن هذا المطلع قطعة من اليأس ، عودته إلى الشك في هذه الشدائد الموقدة بنارها ولهيبها ، والتي زلزلت أمة من الناس فكانوا كما قال الله تعالى في صفة زلزلة الساعة : « يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد » . فكذلك عاد الشاعر يشك بعد طغيان البلاء عليه — أن ينقلب كل ذلك الرعب الذي اضطرب به الناس سُكراً بحريّاً — هذا الشرق المغلوب — على الكفاح ، في زمن يرى من أهواله شدائد ترجف بالشرق رجفة كأشد ما رجفت زلزلة الأنامنول ، فلذلك قال : « ولعلها خمر ... »

هي أمة زلزلت جنبَ مِهادها ونفخت ريحَ الموت في جنباتها

وهذا البيت يكاد يكون الحد الفاصل بين يأس الشاعر الذي طغى عليه حتى أنساه روح الزلزلة التي كانت في إحساسه ، وهو نفسه الذي يردُّه مرة أخرى فزعاً ثائراً متوثباً تتقاذفه تهاويل إحساسه في رعب بعد رعب

شوَّهتَ صفحتها بمدية جازر الرحمة انتحرت بحدِّ شباتها
مجنونةُ الحدَّين لو هي لوحتْ لانهد ركن الأرض من حركاتها
ذئبية الشهوات جاع حديدُها وأراق جوع الوحش في لهواتها

وهنا موضع يوقف عنده ، فإن المعنى الذي أراده الشاعر ، والصورة التي نشأت من شدة إحساسه بهول الزلزلة — طغت فلم يستطع المنطق أن يضبط اللغة على قياسها ؛ فهو يريد أن يقول : إنه يرى هذه المدية الصقيلة الذئبية الجائعة المهلكة المجنونة فيرى على حدَّيها وصفحتيها من فِرِندها وضوئها ومائها ما ينسابُ ويترَيّق ويتلألأ ويرى بأضوائه كأنه ضوء جائع يريد أن يلتهم كل ما يلقاه ، وذلك قوله : « وأراق جوع الوحش في لهواتها » فقوله : « وأراق » هنا لا توافق المعنى ، وقد أوقعه عليها اختلاط « فرند المُديَة » — وهو ماؤها — بالمعنى الذي أراده ، ولو قال : « يذكي سعار الوحش في لهواتها » أو ما يقارب ذلك لكان أجود

ثم يمضي الشاعر في تصوير ما تخيله — حين فجأت الزلزلة الأنامنول — :

والناسُ غرقى في السكون سجتْ بهم
سِنَةٌ ينامُ الهولُ في سكناتها
ينامُ فوق المهودِ عوالمٌ غشَّى ضبابُ الصمت كل جهاتها
وإذا بقلبِ الأرض يرجفُ رجفةً :
دُكَّ الصباحُ وذابَ في خفقاتها
وانشقت الدنيا لديه فلم يجدْ أرضاً يغيثُ النورَ في ربواتها
فطوى المدائن والقرى وهوَى بها
في سدفة تهوي على ظلماتها
... ...
وبنى اللحود على المهود وهدَّها فنضا ستورَ الموت عن عوراتها
زأرت جراحُ الأرضِ فاهتاجَ الردى
وتنهّـد الزلزال في ساحاتها

وإذا الذي أتى به في وصف الزلزلة إلى آخر القصيدة شيء هائل مخيف تقشعر له الأبدان ، وتراه متدفقاً طاغياً لا تكاد تقف على كلمة منه إلا مرتاعاً قد قفّ شعرك عن هول ما تنقل إليك ألفاظه من معاني إحساسه الثائر المتفجر

أنفاسه لهبُ الجحيم وخطوه خطو المنايا السود في فجآتها

إلى بعض القراء

... وبعد ، فإن العالِمَ الثقةَ الثبتَ المحقق الدكتور بشر فارس قد عَلِمَ فعلَّمَ ! ! وأنا أشكرُ له ما علَّمني ، فأنا لا أحبُّ أن أكون كالذي قيل في أمره : « لا تناظرْ جاهلاً ولا لجوجاً ، فإنه يجعل المناظرة ذريعة إلى التعلُّم بغير شكر » . ثم بصَّرني « بشر » أيضاً بما كنت أجهل من العروض واللغة والبيان ، فأوغر صدري ، فنثرت حول قَهري ما ملكت من نُفاية الكلام ، وكذلك طوّقتُ نفسي به زينة وحلية أتبرّج بها للناس ، أو كما قال ! وهو كذلك ...

فأنا أحمد الله الذي كفاني شر الغرور والخيلاء ، ولم يجعلني كالجاهلة الخرقاء التي زعموها تأنقت بما ليس فيها ، ولا هو من

طباعها ، حتى ضربوا بها المثل فقالوا : « خرقاء ذات نيقة[1] » والحمد لله الذى لم يجعلنى ممن يتزين بما ليس تملكه يداه ، فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «المتشبع بما لم يُعْطَ كلابس ثوبى زُور» ؛ والحمد لله الذى جعلنى جاهلاً يعرف أنه جاهل ، ومن أين لمثلى العلم ؟ أليس قد « ذهب العلم إلا غبارات فى أوعية سوء » كما قال ابن شبرمة فى رواية بشر فارس عن ابن شبرمة : (بريد « الرسالة » العدد ٣٤٦) .

وقد قرر الأستاذ بشر أنه بصرنى بأمور ثلاثة ، وأنى سلمت مرغماً بأنه بصرنى بما كنت أجهل من أمرها ! ! وإذا قرر الأستاذ بشر فقد وجب علىّ وعلى الناس التسليم بما قرر ؛ أليس ذلك كذلك ؟ بلى ؛ « سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير »

ومع ذلك، فمن غَلَبة الجهل علينا أن البحر الذى وضعه وسماه « المنطلق » ، لا يزال عندنا وعند أصحابنا من علماء العروض — هو من « مجزوءة المتدارك » أدخل الشاعر الأستاذ على ضربها العرج أو الفساد أو الخبن أو ما شئت فسمه ، ثم ألزمها ذلك فى سائر أبياته ، ثم قال إنه وضع بحراً . ومن غلبة جهلنا أيضاً أننا نعده وزناً ثقيلاً غثاً كسائر الأوزان الممكنة التى تركها العرب لثقلها على السمع ، فلم تجزها فى شعرها ؛ ومن غلبة جهلنا أيضاً أننا لا نزال ندعى أن لن يوجد فى أصحاب الألسنة العربية من الشعراء المجيدين من يتابع النظم على هذا الوزن الجافى من « مجزوءة المتدارك » ، وكذلك أهملناه وسنهمله

وأما حديث « الزلزلة » ؛ فلا نزال نقول إن كل حرف من حروف العربية ينقل إلى المجاز ، فهو يتطلب دائماً حقيقته ، وإلا فسد مجازه . فإذا كان أصل الحرف « زلزل » وحقيقته : أن يزلّ الشىء عن مكانه مرة بعد مرة ، أى أن ينتقل ويتحرك ويسقط ويخرج عن الموضع الذى يستقر عليه ، فلا بد فى كل مجاز لهذا الحرف أن يكون ما يقع عليه فعل الزلزلة — (أى نائب الفاعل أو المفعول) — شيئاً متنقلاً من مكان إلى مكان أو شيئاً يجوز أن ينتقل من مكان إلى مكان ، فهذا هو شرط المجاز أو الاستعارة فى هذا وأمثاله ، وإذ ليست الأذن كذلك ، فقولك « زلزل الطرب أذنى » مجاز فاسد لأن الأذن ثابتة لا تتحرك

وإذا قال كتاب « خلاصة الطبيعة ، فى الصوت!! » فى باب « شرح عمل الأذن » إن الصوت يهزّ غشاء طبلة الأذن حين تصكها الأمواج الهوائيـة التى يُحدثها مصدر الصوت ، فليس معنى « يهز الغشاء » هنا أنه ينقله من مكان إلى مكان آخر ، فإذا كان ذلك كذلك ، وكان غشاء طبلة الأذن مثبتاً لا يتحرك أى لا ينتقل من مكانه ، وإنما هو اهتزاز يلحقه ، فليس فى الدنيا « ناى » أو غيره يستطيع أن يجعله يتحرك أى ينتقل من مكانه ، ولو كان فى قلب هذا « الناى » عشرون فرقة من فرق « الجاز بند » ... ولو كان ذلك فتحرك الغشاء قليلاً عن مكانه لتمزق وانخرق ، وكان الصمم . وإذن فليس يجوز فى العربية أن يقال « زلزل الطرب أو الناى غشاء طبلة أذنى » ! وإلا فهو مجاز فاسد أيضاً

وأما ما يقال من أن الزلزلة والطرب على مجاورة فى لغتنا ! ! فهو شىء لا أصل له ، وهى عبارة لا تؤدى إلى معنى ، وهو كلام « يدخل بعد العشاء فى العرب »

وأخيراً ... ، فمن عظة نبينا صلى الله عليه وسلم قوله : « من طلب العلم ليمارى به السفهاء ، أو يباهى به العلماء ، أو يصرف به وجوه الناس إليه ، أدخله الله النار » . ونحن نعوذ بالله أن نخالف عن أمر نبينا ، أو نكون ممن يستخف بما أنذر به ، فنباهى الأستاذ بشر بما نعلم ، وإذن فلست أجمل حديثى هذا إلا للقراء وحدهم لأضع به عن نفسى أمانة العلم ...

حتى إذا ما الصباحُ لاح لهم   بيّن ستُّوقهم من الذهب
والناس قد أصبحوا صيارفة   أعلم شىء بزائف النسب

فأستأذن القراء وأستغفرهم، فأنا امرؤ لا يحب أن ينصب نفسه لمن هو عند نفسه أكبر من نفسه والسلام

ابن شبرمة !!

وما دمنا فى حديث أمانة العلم ، فقد رأيت أن الأستاذ المحقق « بشر فارس » روى خبراً عن ابن شبرمة القاضى قدمناه آنفاً وهو : « ذهب العلم إلا غبارات فى أوعية سوء » . وقد رأيت صاحب العقد الفريد (ج ١ ص ٢٠٥ طبعة بولاق أيضاً !) قد أورده بهذا النص عينه ، وهو يبدو لنا نصاً عربياً مظلم النور وتحرير رواية الخبر : « ذهب العلم إلا غُبَّرات فى أوعية

(١) قال الميدانى فى مضرب هذا المثل : « يضرب للجاهل بالأمر وهو مع ذلك يدعى المعرفة »